قصة

حياة ...

بقلم شريف الراس

على الرغم من ان الاستاذ خالد قد عزم على الانتحار عدة مرات ليلة امس ـ ولا يعلم الا الله لماذا ! ـ فقد افاق صباح اليوم مبتهجا طروبا . لا بل انه كان يمشي في الشارع وكأنه يريد ان يرقص . كان في الواقع يشعر بانه يرد لو يطير ، لا بل هو يكاد يطير الى السماء بخفة ورشاقة لا حد لهما ... ثم انه لاحظ صدفة احد تلاميذه من طلاب الشهادة الثانوية يعبر الشارع ذاته ، وتلاقت العيون لحظة ، فشد الاستاذ خالد اوتار عضلات ساقية ، وقطع النغمة الصافرة السريعة من بين شفتيه ،ثم اشعل سيكارة جديدة ، وتابع طريقه كما يكون الناس ، حتى وصل دكان « بوعبود » فتناول علبة تبغ اخرى .

ـ تطلي سرت غليظة يا بوعبود

ـ امرك على راسي ياستاذ .. صباح الخيرات .

كان بوعبود واحدا من انبياء الرب سلمان المرشد ـ في عهد تعدد الالهة ـ وقد اضطر الى الهجرة الى الحسكة بعد ان شنقوا ربه . انتقل الى الحسكة بشاربيه الغليظين ولهجته العلوية التي تدخل القلب بلا استئذان . وربما كان هذا ما اغرى الاستاذ خالد ان يفضله على البائعين الاخرين . اما ما جعل الاستاذ يفضل الشراء دينا على الشراء نقدا فتلك مسالة اخرى .

قال بوعبود : « اظنك توافق على قدح من الشاي الساخن » .

فاجاب الاستاذ فورا : « ؟ ، طبعا .. هات .. وانا اظن يا بوعبود ان بقائي هناحد باب الدكان افضل من ان ادخل . ان وقوفي بجانبك ظاهرة انسانية خطيرة ، فانت تفصل اربعة مني، وانا لا اشتهي ان ابدو للناس فزما . وانما .. »

ثم فرط من بين اسنانه ضحكة طويلة ـ ولا يعلم الا الله لماذا ـ واخذ يبتسم ثم يرشف من الشاي ثم يعفس عقب السيكارة تحت حذائه ويظل ينظر في الارض .

قال بوعبود : « اهموم جديدة » ؟

فاجاب الاستاذ فورا : « لا والله .. الهموم هي هي كما تعلم .. » ثم صمت ، واشعل سيكارة اخرى .... كان خالد يدخن ثلاث علب في اليوم ، ولا يدخن شيئا في الواقع . كان يشعل وينفخ ويعض ، كانما يجد لذة في تكرار ذلك كل لحظة .. ثم رشف اخر جرعة الشاي بصوت يكاد يشبه الشخير القاسي . وبعد ذلك قلب القدح فانسكبت منه قطرات « الشمالة » على الارض ، فقال : « وبيد لا ترحم يسكب قطرة المرارة الارضية في كاس النشوة الفكرية .. هل فهمت شيئا يا بوعبود ؟ » .

ـ « كلامك على رسي يا استاذ خالد » .

ـ « اتريدالحقيقة ام الكذب ؟ انت لم تفهم شيئا مما قلت . وكان يجب ان لا اذكر مثل هذه العبارات امامك .. وانما يعني » ثم انفرطت ضحكة جديدة من بين اسنانه ففطى فمه بيده ـ ولا يدري الا الله لماذا ـ ثم قال : « اننا لا نفكر فيما يكلف هذا من دماء ... طبعا انت تسمح لي ان ابتليك بالحديث عن الادب . وطبعا انت لم تقرأ اقوال واحد من عيال كارامازوف حين نظر الى السماء بعين تقدح بالحقد ، بعين تطفح بالكلام الرذيل ان صح التعبير. ولكن لماذا ابتليك انت دون سواك بالحديث عن الادب ما دام طلابي انفسهم لا يفهمون شيئا منه . اتريد الكلمة النهائية ؟ ـ سواء فهمت ام لم تفهم فانني لا ازال ابحث عن شخص يتمسك بان يبقى جمرة تلتهم نفسها لكي يقوم من الموت كل يوم ويجد دائما قوى اوفر ومتناقضات اكثر عنفا . انني ابحث عن شخص لا يود ان يوجه حياته بل يود ان يمسها بعنف ويشعر بها ويؤرث نارها ليكتوي بها .. هذا الكلام ليس من ابداعي وانما .. السلام عليكم » .

فسأله عبود : الى اين يا استاذ ؟

قال خالد : « ؟ .. هذا هو السؤال الابدي : الى اين .. على ان هناك سؤالا آخر يبدو انه سيغدو ابديا : لماذا اظل معلما في هذه الحسكة اللعينة اربع سنوات ولا يوافقون على نقلي الى دمشق ؟ » . وفي تلك اللحظة وصلت الدكان طفلة تريد ان تشتري نصف كيلو من السكر، فمشى الاستاذ الى اي اتجاه كان، في هذه الشوارع والازقة التي اصبح يعرفها شبرا شبرا . وكان يمر بالناس الذين حفظ صورهم النمطية عن ظهر قلب حتى لقد زاد ذلك من ضجره المستديم . ثم انه حاول ان يستخرج من زوايا ذهنه اية حادثة او فكرة يفصفصها في هذا الطريق ريثما يتاح له ان يقف في محطة اعتباطية اخرى . فتذكر صورة عابرة من حياته الجامعية، فابتسم وشعر بشيء من الارتياح . ثم تذكر ـ فجاة ايضا ـ صورة والديه واخوته الذين يعيشون ـ مجازا ـ في دمشق ، مما ادى به لان يحس بالضيق والملل من جديد. ثم انه شاهد موكب عرس يعبر الشارع بسيارات صغيرة صارخة ، مزينة باشرطة حريرية عديدة الالوان ، فلعن البلدية التي لا تمنع مثل هذه الفضائح. وفي اللحظة ذاتها تذكر هذا المشهد : «في دمشق، في قبو خافق ، الاسرة تحشر بقضها وقضيضها في غرفة . ويجلس الاب مع ضيفه في الغرفة الثانية . السقف واطيء . الضيف صديق قديم للاب ، ولهذا اقتضت اللباقة ان يشاركهما خالد الجلسة ـ بوصفه الابن البكر ـ ويتقلب الحديث اشكالا والوانا لا تخرج كلها عن نطاق ما يسمى بتبادل العواطف . ويهم خالد ان يتملص من هذه الجلسة لولا ان الضيف يسال الاب : « ومتى سنفرح في زواج الاستاذ ؟ » فيجيب الاب: «ليته يقبل .. انه يرفض ان يتزوج» فيبتسم خالد وهو يمشي «لقد كذب سيادة والدي فانا اتمنى ان اتزوج وانما .. » ويحس ان يدا

حنونة تمتد تحت ابطه ، ثم تنفجر ضحكة طويلة مزدوجة ، من الاستاذ ومدير المدرسة الثانوية .

ـ اين كنت ؟

ـ كنت ابحث عن المطلق .

ـ منذ الصباح تبحث عن المطلق ؟؟

ـ آه .. طبعا .. فان ازمة قلق طائشة اهلكتني ليلة امس .. قلق لا موضوع له ..اتدري ؟ لو كان لقلقي موضوع خاص ينصب عليه اذن لما كان قلقا بل كان خوفا . هكذا يقول الفلاسفة .

فقال المدير : « يبدو انك ستظل الى الابد تحفظ عبارات الاخرين .. تعال .. تعال نفس قلقك في قدح من خمرة روبير » .. ثم شد على يده بحب عظيم . كان هذا المدير يحب خالدا حبا هو العبادة بعينها . وعلى الرغم من تنافرسمات سحنة هذا « الخالد » فان المدير لا يستطيع مفارقته ساعة واحدة . حتى اصبح يعتقد بان اي انسان في العالم ، ما انيتعرف على هذا الخالد الا ويقع في حبه . وبهذا المعنى كان يقول له : « انحبك قدر لامفرمنه » . وكان يأسف دائما على انهما عاشا الحياة الجامعية في فترة واحدة دون ان يعرف احدهما الاخر . وكان فوق ذلك يمده بالمال ، وبفرح عظيم . ولم يعد غريبا عليه ان تصله برقية مفاجئة في العطلة الصيفية ـ وقد تباعدا ـ تقول : « انا في ورطة . انقذني .. خالد » . فكان يحول اليه من بلدته البعيدة ما يحتاجه من المال ، وهو يعرف سلفا ان خالدا ليس في ورطة بل هو في ازمة شبق ، او هو في طريقه الى الماخور الكبير يبحث عن زنجية او بغي عجوز ... وحين قرا ذات مرة عبارة خاصة في كتاب لستيفان زفايج يتحدث فيها عن دستويفسكي وابطاله ، اشار تحتها بالخط الاحمر واحتفظ بها كصورة معبرة عن « اخيه » خالد . هذه العبارة تقول : « بيد انهم كلما ارخوا لانفسهم العنان في الافراط في شهواتهم الجسدية وفي تفكيرهم ، كلما اصبحوا اشد قربا من انفسهم . وكلما فتشوا عن التلاشي كلما اصبحوا مستعدين للتوبة عن غيهم . ان دعارتهم المبكية الحزينة هي متناقضات وان جرائمهم هي خنادق ولادتهم الحديثة . وهم اذ يمزقون انفسهم لا يمزقون سوى غلاف الكائن الخارجي وينقذون انفسهم . وكلما مدوا عضلاتهم ، وكلما لووا اجسادهم كلما سهلوا امر الولادة . لان الكائن الجديد لا يمكن ان يولد الا في الالام الضارية . ويجب زيادة على ذلك ان تتدخل قوة اجنبية وتنقذهم في هذه الساعة المخيفة ، وان تخف الى مساعداتهم الانسانية النبيلة الشاملة » .

وفي مقهى روبير طعم الصديقان شواء لذيذا وشربا نبيذا يقال انه معتق ، وظلا يناطحان الكؤوس حتى شرعت المآذنة تعلن بمكبرات الصوت الجهورة ان موعد صلاة الجمعة قد ازف ... كان الخدر قد وصل بالصديقين حد النشوة ، وكانا خلال كل ذلك قد تحدثا معا عن كل اساتذة المدرسة ، فردا فردا ، وبذلك فقد نال خادم المدرسة « ابو سعيد » من المديح اكثر مما حظي به الاساتذة جميعا .. ان العبارات التي قيلت في وصف الاساتذة هي العبارات ذاتها التي قيلت الف مرة ، وربما كان هذا مبعث الضحك فيها . وامور اخرى سمعها المدير من خالد الف مرة وسيجد متعة في سماعها الف مرة اخرى . حياة خالد في الجامعة . فقره المذهل وذكاؤه الخارق . كيف كان ينجح وكيف يتملص من المواقف المحرجة . تصوره لحالات العشق الفاشلة أيامذاك . جمعه اعقاب السيجارات لتدخينها . قصة كذب ابيه للضيف فيما يختص بالزواج . حكاية المعلمة التي عرضت عليه الزواج بها فظل صامتا ..الخ.

كان خالد واحدا من اولئك الناس الذين ما ان يمتصوا الجرعة الاولى من القدح الا ويفتح الله على قلوبهم بالكلام الكثير والضحك المتواصل . اما المدير فقد كان منالنموذج المقابل تماما . انه يصغي ويطرح الاسئلة وينعم بالنكات والملح حتى تملأ النشوة راسه ، فيغدو ثقيلا مثل الرصاص وانذاك كان يطرق الراس متمتما بلهجة حزينة :

ما وراء ما افعل اليوم ؟ او ما سوف افعل في غدي ؟ بل ما وراء حياتي كلها؟

لماذا ينبغي ان اعيش ؟ ولماذا ارغب في اي شيء او اعمل اي شيء ؟؟

فيفاجئه خالد قائلا : « مقتطفات من اعترافات تولستوي .. اليس كذلك » ؟

فيقول المدير باسما طروبا : « لعنك الله ما اشد ذكاءك . انك كتلة من الاعصاب اليقظة المتوفزة . واما اظن جسدك الرفيع هذا الا مخزنا لحميا حفرت فيه كل روائع الابداع البشري بلا تنظيم ولا تبويب . اتدري لو انك عرفت كيف تنسق هذه المحفوظات اذن لامكنك ان تصوغ رائعة انسانية ما .. ولكنت العبقري الذي ينتظره العرب اليوم .

ـ آه .. طبعا .. انا عبقري الامة العربية .. وانما .. وانما هذه كافة ومكفوفة . ولا ادري لماذا احب هذه الانماء !

ابتسم المدير لحظة ،ثم طأطأ رأسه بتأثير الثقل الرصاصي، وتمتم : « ما وراء ما أفعل اليوم ؟ او ما سوف افعل في غدي ؟ » ثم رفعراسه فجأة وقال : «خالد ، هل قرات قصة ١٩٨٤ ؟ ان هذه القصة تمسك بمؤخرة راس قارئها وتأمره بحزم وقسوة : انظر الى موطىء قدميك . راقب نفسك كيف تسير والى اين تسير . فما يلبث هذا الانسان ان يتعثر، ثم ما يلبث انيشعر بالدوار ويترنح كالمطعون وتتهدل يداه ويجمد وجهه كالابله » ..

قال خالد : هذا كلام جميل وانما هنا ما هو اجمل منه بكثير ، ان تدفع لروبير حسابه ونقوم .

كان الناس يغادرون المسجد آنذاك ، وكانوا يسرعون الخطى الى بيوتهم وعلى الرصيف المقابل كان يسير شابان صغيران ، وقد اتكا كل منهما على الاخر وتساندا بحنان عجيب . ومرت وسط الشارع سيارة معربدة فملأت الدنيا غبارا وضجيجا .. وعفس احد الشابين بقية من سيكارة تحت حذائه وقال : صحيح انهم لم يحترمونا حين اثاروا في وجهنا كل هذا الغبار . وانما يجب ان نمر على « بوعبود » لنشتري علبة تبغ جديدة .

شريف الراس

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الست الاولى من الآداب تباع كما يلي

		مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ل.ل	١٠٠ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «